مقدمة الطبعة الثانية

الحمد لله رب العالمين، اللهم بك المعونة، ومنك الهداية، ربنا عليك توكلنا، وإليك أنبنا، وإليك المصير.

ونصلى ونسلم على رسولك الذى آتيته الحكمة وفصل الخطاب، وعصمته من الزلل، وألهمته الصواب، ومنحته فضيلة البيان، فكان من الحجة والبلاغة بمكان.

وبعد.

فهذه هى الطبعة الثانية من كتاب «البيان - فى ضوء أساليب القرآن» نقدمه تلبية لرغبة الدارسين للغة القرآن، والباحثين فى بلاغته، نقدمه للقراء على الطريقة التى عرف بها، وعهدت فيه، والتى يحملها اسمه، مع زيادات وتعليقات، فيها مزيد من المعرفة، وكشف عن خصائص اللغة، وأسرار من بلاغة القرآن.

والله أسأل أن يعصمنا من الخطأ، ويجنبنا الزلل، وأن يجعل نفعه عميمًا، وأن يكون خالصا لوجهه تعالى، «ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيئ لنا من أمرنا رشدا».

القاهرة فى شعبان ١٤٠٥ هـ - يوليو ١٩٨٥م

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الأولى

القرآن الكريم هو المعجزة الكبرى للرسول - صلى الله عليه وسلم - فقد بلغ قومه من فصاحة القول حدًّا لايبارى، ونزل القرآن الكريم على الرسول - عليه السلام - بلسانهم، ومع ذلك فقد تملكهم العجب، واستولت عليهم الدهشة، وتملكتهم الحيرة، لما لمسوا فيه من بيان، وأحسوا من بلاغة، وقد تحداهم الله - عز وجل - أن يأتوا حتى ولو بمثل سورة منه فعجزوا، وكان هذا شاهدًا بينًا على وضوح عجزهم وثبوت إعجازه.

ومنذ نزل القرآن الكريم وإلى وقتنا هذا والباحثون لم يتفقوا على وجه معين خرج به القرآن عن طاقة البشر، وعدم اتفاقهم على ذلك هو دليل من دلائل إعجازه.

وقد ذكر العلماء من وجوه إعجازه: الإخبار بالمغيبات، والصرفة، والإعجاز العلمى، والإعجاز العددى، والإعجاز البلاغى.

وجل الباحثين على أن البلاغة هو الوجه الأصيل فى إعجاز القرآن الكريم، إذ هو الوجه الذى يلازمه فى كل سورة، بل فى كل تركيب، ويحس بروعتها كل من يستمع إلى كلام الله، ويصغى إلى آياته.

وكان من توفيق الله ان كتبت منذ سنتين «المعانى - فى ضوء أساليب القرآن» وكان البحث مقصورًا على بلاغة التركيب فى الجملة ومضاعفاتها، وسر بلاغتها، وموطن إعجازها وبخاصة آيات القرآن الكريم، وجاء البحث - بحمد الله - على غاية الكمال والتوفيق، وطبع أكثر من مرة.

واليوم نقدم «البيان - فى ضوء أساليب القرآن» مقتصرًا فى البحث على أساليب

التشبيه ، والاستعارة، والكناية، مبيناموطن البلاغة وسر الإعجاز فى التصوير البيانى الذى زخر به القرآن الكريم.

وهدفنا أن تكون بلاغة القرآن قطوفها دانية، وثمارها جنية، لهذا توخينا أن نعرض مباحثها فى غاية من السهولة والوضوح، فاقتبسنا نماذجها من تصوير القرآن الكريم موئل البلاغة وآية الإعجاز، ومن حديث الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمأثور من جيد الشعر، نقدمها لنستخلص منها القواعد، ونبين ما فى تصويرها من جلال وجمال، مرشدين إلى ما تنطوى عليه من بلاغة القول وفنون التعبير، آملين من وراء ذلك أن يجد طلاب البحث نصوصًا عالية ورفيعة يتمرسون بها لتنمو ملكاتهم، وترهف أذواقهم، وتقوى سلائقهم.

وإننا لنرجو أن يقبل طلاب البحث على علوم البلاغة التى ما وضعت إلا لفهم كتاب الله وبيان إعجازه ورد الشبه عنه، كما أنها زاد الشاعر والخطيب والكاتب والناقد، وهى الوسيلة التى لا بد منها لتذوق الجمال فى ألوان القول وفنون التعبير.

كتب الله لنا التوفيق، وألهمنا طريق الصواب. فهو نعم المولى ونعم النصير.

القاهرة فى رمضان ١٣٩٧هـ، - أغسطس ١٩٧٧م.

المؤلف

تمهيد

لمحة عن تطور مصطلح «علم البيان»

يحسن أن نتتبع كلمة «بيان» فى أثناء سيرها فى تاريخ البلاغة العربية، حتى نقف بها عند الدلالة الاصطلاحية، وضعها العلمى الأخير على يد السكاكى «ت ٦٢٦ هـ».

جاء فى اللسان[1] البيان: الفصاحة واللسن، وكلام بين: فصيح، والبيان: الإفصاح مع ذكاء، والبين من الرجال: السمح اللسان، الفصيح الظريف، العالى الكلام، القليل الرتج، وفلان أبين من فلان: أى أفصح منه لسانًا وأوضح كلاما، ورجل بين: فصيح. قال الشاعر:

قد يَنْطق الشعرَ الغَبىُّ ويَلْتَثِى ... على البَيِّن السفَّاك وهو خطيب[2]

فالبيان فى معناه اللغوى لا يخرج عن الكشف والإيضاح، وعُلُوِّ الكلام، وإظهار المقصود بأبلغ لفظ.

وفى القرآن الكريم ورد لفظ «بيان» ومشتقاته بهذا المعنى، قال تعالى: (الرحمنُ، عَلَّم القرآن، خلق الإنسان، عَلَّمه البَيَان) (الرحمن ١ - ٤)، (هذا بَيَانٌ للناس) (آل عمران ١٣٨)، (ونَزَّلْنا عليك الكتابَ تِبْيَانًا لكل شىء) (النحل ٨٩) (إلا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ) (النساء ١٩).

وفى الحديث الشريف ما رواه ابن عباس عن النبى - صلى الله عليه وسلم - «إن من البيان لسحرًا، وإن من الشعر لحكمة». ومعناه: أن الرجل يكون عليه الحق وهو أقوم بحجته من خصمه فيقلب الحق ببيانه إلى نفسه، لأن معنى السحر

(١) لسان العرب مادة بين.

(٢) يلتثى من اللأى وهو الإبطاء، السفاك كشداد: البليغ القادر على الكلام «قاموس».

قلب الشيء فى عين الإنسان، وليس بقلب الأعيان، ألا ترى أن البليغ يمدح إنسانا حتى يصرف قلوب السامعين إلى حبه، ثم يذمه حتى يصرفها إلى بغضه»[١].

وظلت كلمة «بيان» يراد بها هذه المعانى العامة حتى فى عُرْف الجاحظ «ت ٢٥٥ هـ» فقد قال عنه: «البيان» اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضى السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان، ومن أى جنس كان ذلك الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التى إليها يجرى القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأى شيء بلغت الإفهام وأوضحت المعنى، فذلك هو البيان فى ذلك الموضع»[٢].

وقد جعل الجاحظ البيان ودلالاته خمسة: اللفظ، والإشارة، والعَقْد - وهو ضرب من الحساب يكون بأصابع اليدين، ويقال له: حساب اليد، والخط، ولذلك قالوا: القلم أحد اللسانين، والنُّصْبة - وهى الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد، وتقوم مقام الأصناف المتقدمة ولا تَقْصر عن تلك الدلالات، وذلك ظاهر فى خلق السموات والأرض وكل صامت وناطق، ولذلك قال الأوَل: «سل الأرض فقل: من شق أنهارك، وغرس أشجارك، وجنى ثمارك، فإن لم تجبك حوارًا أجابتك اعتبارًا»[٣].

وهذه الصور الخمس هى البيان عند الجاحظ، وقد تابعه فى هذا ابن وهب[٤] إلا أنه جعلها أربعة، ولو نظرنا إلى هذه الدلالات الأربعة عند ابن وهب لوجدناها قريبة الصلة بما ذكره الجاحظ.

والرمانى «ت ٣٨٦هـ» قال: «البيان، هو الإحضار لما يظهر به تميز الشيء من غيره فى الإدراك، والبيان على أربعة أقسام: كلام، وحال، وإشارة، وعلامة.

والكلام على وجهين: كلام يظهر به تميز الشيء عن غيره فهو بيان، وكلام

---

(١) النهاية فى غريب الحديث والأثر جـ١/٩٧٤.
(٢) البيان والتبيين جـ١/٧٩.
(٣) البيان والتبيين جـ١/٧٦.
(٤) البرهان فى وجوه البيان ٦٠ «نقد النثر».

لا يظهر به تميز الشيء فليس ببيان، كالكلام المخلط، والمحال الذى لا يفهم به معنى، وليس كل بيان يفهم به المراد فهو حسن من قِبَل أنه قد يكون على عىّ وفساد، كما يحكى عن باقل، وقد بلغ من عِيِّه أنه سئل عن ظبية كانت معه بكم اشتراها؟ فأراد أن يقول: بأحد عشر، فأخرج لسانه وفَرَّجَ أصابعه، فأفلتت الظبية من يده، فهذا وإن كان قد أكَّد للإفهام، فهو أبعد الناس من حسن البيان، لأن الله قد مدح البيان، واعتد به، فقال: (الرحمن، علم القرآن، خلق الإنسان، علمه البيان)[1].

فالبيان عند الرمانى يلتقى بما رُوى عن الجاحظ وابن وهب، وكلامه فيه عود إلى وجوهه عند الجاحظ.

وابن رشيق «ت ٤٦٣ هـ» نقل عن الرمانى ولكنه لم يقف عنده، وساق له تعريفا فقال: «هو الكشف عن المعنى حتى تدركه النفس من غير عُقلة، وإنما قيل ذلك لأنه قد يأتى التعقيد فى الكلام الذى يدل ولا يستحق اسم بيان»[2] وفى الأمثلة التى ساقها بعد ذلك دليل على أنه كان قريبا مما قال به الأولون.

وعبد القاهر الجرجانى «ت ٤٧١ هـ» جعل الفصاحة، والبلاغة، والبراعة، والبيان، تدل على معنى واحد أو متقارب، وهو التعبير عن فضل بعض القائلين على بعض من حيث نطقوا، وتكلموا، وأخبروا السامعين عن مقاصدهم وأغراضهم وراموا أن يعلموهم ما فى نفوسهم، ويكشفوا لهم عن ضمائر قلوبهم»[3].

فالبيان عند عبد القاهر لم يتغير عن ذى قبل، ولا زال المقصود منه معنى الكشف والإيضاح عما فى النفس، والدلالة عليه.

وإذا كان هذا هو فهم عبد القاهر لهذا المصطلح فى ذهنه وعند من عاصروه فلم يحاولوا الفصل بين الدراسات البلاغية وتقسيمها إلى علومها الثلاثة «المعانى والبيان

---

(١) النكت فى إعجاز القرآن ١٠٦.

(٢) العمدة جـ١ ١٦٩.

(٣) الدلائل ٣٥.

والبديع» فإن من الافتيات على عبد القاهر ما وقع فيه الناشر حيث كتب تحت «دلائل الإعجاز» وهو عنوان كتابه عبارة «فى علم المعانى»، وكتب تحت «أسرار البلاغة» وهو عنوان كتاب آخر له «فى علم البيان» ، لأن «دلائل الإعجاز» فيه من المباحث ما يدخل فى صميم مباحث «علم البيان»، كما أن فى «أسرار البلاغة» من المباحث ما يدخل فى «علم البديع».

وابن الأثير «ت٦٣٧ هـ» رأى فى «البيان» معنى واسعا يدل على البلاغة كلها - فصاحة وبلاغة - فقال:

«موضوع علم البيان هو الفصاحة والبلاغة، وصاحبه يسأل عن أحوالهما اللفظية والمعنوية، وهو والنحوى يشتركان فى أن النحوى ينظر فى دلالة الألفاظ على المعانى من جهة الوضع اللغوى، وتلك دلالة عامة، وصاحب علم البيان ينظر فى فضيلة تلك الدلالة، وهى دلالة خاصة، والمراد بها أن تكون على هيئة مخصوصة من الحسن، وذلك أمر وراء النحو والإعراب.

وجعل من أدوات علم البيان ثمانية: معرفة علم العربية من النحو والتصريف، وما يحتاج إليه من اللغة، ومن أمثال العرب وأيامهم، والاطلاع على تأليفات من تقدمه من أرباب هذه الصناعة، ومعرفة علم العروض والقوافى لمن يريد الشعر[1]».

وهو بهذا لم يخرج بالبيان عمن سبقوه.

وظل هذا المفهوم الواسع لكلمة «بيان» حتى ظهر فى خوارزم السكاكى «ت ٦٢٦ هـ» فحجر ما كان واسعًا ووضع للبلاغة قواعدها المنطقية، وقسمها إلى «المعانى والبيان، وألحق بهما المحسنات» وجعل لكل قسم تعريفًا وَحَدًّا.

وقد عرف البيان، فقال:

«هو إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، بالزيادة فى وضوح الدلالة عليه

---

(١) المثل السائر جـ ١/٣٩ - ٤٥.

والنقصان، ليحترز بالوقوف على ذلك عن الخطأ فى مطابقة الكلام لتمام المراد منه[١].

فالسكاكى خصص «البيان» وجعله قسمًا مستقلا من علوم البلاغة، وأصبحت البلاغة العربية عنده قسمين:

١ - صنف يبحث فيه عن الهيئات والأحوال التى تطابق باللفظ جميع مقتضيات الأحوال، وهو - علم المعانى -

٢ - صنف يبحث فيه عن الدلالة على اللازم اللفظى وملزومه، فقد يُنْطق باللفظ ولا يراد به منطوقه، بل يراد به لازمه، وإن كان مفردًا كقولك: أسد، فلا تريد حقيقة الأسد المنطوقة وإنما تريد شجاعته اللازمة وتسندها إلى زيد، وقد تريد باللفظ المركب الدلالة على ملزومه، كما تقول: زيد كثير الرماد، وتريد ما لزم ذلك، وهو الجود وقرى الضيف، لأن كثرة الرماد ناشئة عنها، فهى دالة عليها، وهذه كلها دلالة زائدة عن دلالة الألفاظ من المفرد والمركب وهذا هو - علم البيان -[٢].

وقد جعل السكاكى «علم البيان» شعبة من «علم المعانى» لا تنفصل عنه إلا بزيادة اعتبار، لذلك جرى منه مجرى المركب من المفرد، ولهذا أخره فى الحديث عن علم المعانى[٣] وهذا تعليل منطقى لجأ إليه السكاكى فى التقسيم وجعل ذلك تكأة لتأخير «علم البيان» عن «علم المعانى» فى الحديث عنه.

وما أحسن قول عبد القاهر فى هذا لو لجأ إليه «إن فى الاستعارة ما لا يمكن بيانه إلا من بعد العلم بالنظم والوقوف على حقيقته[٤]».

وقد ألحق بهما قسمًا آخر - المحسنات -، وهو ما عرف بعد بـ «علم البديع»:

وبذلك أصبحت كلمة «البيان» عنوان علم له أصول وقواعد يمكن بواسطتها

---

(١) مفتاح العلوم ٧٧.
(٢) البيان العربى ٢٥٠.
(٣) انظر مفتاح العلوم ٧٧
(٤) الدلائل ٧٩

إبراز المعنى بصور مختلفة بعضها أوضح من بعض، مع مطابقة كل منها لمقتضى الحال.

ومن جاء بعد السكاكى كان مردِّدًا كلامه، وما جاء بعد المفتاح من الكتب كان تلخيصًا أو شارحًا لتلخيصه.

ومما تقدم نفهم أن «البيان» ينطلق على معنيين:

(أ) معنى أدبى أوسع وأشمل، يشمل الإيضاح عن كل ما يختلج فى النفس من المعانى، والأفكار والأحاسيس، والمشاعر، بأساليب لها حظها الممتاز من الدقة، والإصابة والوضوح، والجمال، وهو بهذا التعميم يجمع فنون البلاغة الثلاثة المعانى والبيان والبديع، وهذا المعنى هو المراد عند إطلاق لفظ «البيان».

(ب) معنى علمى ضيق: وهو إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة... كما سبق[١].

وما دمنا بصدد معرفة الذى وضع مصطلح «علم البيان» لابد من التعرض لما ذكره الباحثون[٢] من أن الزمخشرى أول من ميز بين مصطلح «علم المعانى، وعلم البيان» وأول من قسم البلاغة إلى «علم المعانى، وعلم البيان».

والحقيقة أن الزمخشرى «ت ٥٣٨ هـ» لم يؤثر عنه ذلك، وكل ما ورد عنه أنه ردَّد فى كشافه مصطلحى «علم المعانى، وعلم البيان»، يقول عند الحديث عن العلماء الذين يستطيعون تفسير القرآن: «لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق، ولا يغوص على شىء من تلك الحقائق إلا رجل قد برع فى علمين مختصين بالقرآن وهما «علم المعانى، وعلم البيان»[٣].

ولكن كلامه فى ذلك غير واضح، فقد كان يطلق على مباحث البلاغة جميعها «علم البيان»، فمثلاً: الاستئناف المعروف فى باب «الفصل والوصل» من أبواب

---

(١) البيان العربى ٢٥٠.

(٢) انظر فى ذلك الزمخشرى ٢٠٢، البلاغة تطور وتاريخ ٢٢٢، خطوات التفسير البيانى ٢٣٢، البلاغة نشأتها وتطورها ٣٢٩، الصور البديعية جـ١/٣٥٠.

(٣) مقدمة تفسير الكشاف ص، ك.

«علم المعانى» يجرى عند الزمخشرى تحت اسم «علم البيان»، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: (قيل: ادْخل الجنَّة) (يس ٣٦)، يقول الزمخشرى ما مخرج هذا القول من علم البيان؟ ويجيب قائلا: مخرجه مخرج الاستئناف[١].

وكذلك فعل فى «الاختصاص» - وهو من أبواب «علم المعانى»، فى معرض تفسيره لقوله تعالى: (قُلْ لَوْ أَنْتم تملِكون خَزائنَ رحمةِ ربِّى إذًا لأمْسَكتُمْ خشيةَ الإنْفاق) (الإسراء ١٠٠)، وبعد أن يشرح الآية من الوجه الذى يقتضيه علم الإعراب، يقول: فأما ما يقتضيه «علم البيان» فهو أن «أنتم تملكون» فيه دلالة على الاختصاص، وأن الناس هم المختصون بالشح المتبالغ»[٢].

واللف والنشر الذى يعد من «علم البديع» يتحدث عنه الزمخشرى باسم «علم البيان» فى معرض تفسيره لآية الصيام (شهْرُ رمضانَ الذى أُنْزِل فيه القرآنُ هُدًى للناسِ وبيناتٍ من الهُدى والفُرْقَان..) الآية (البقرة ١٨٥)، فيقول: «وإن هذا النوع من اللف لطيف المسلك لا يكاد يهتدى إلى تبينه إلا النقَّاب المحَّدث من علم البيان»[٣].

ويقول البهاء السبكى عن الزمخشرى، أنه كثيرًا ما يقع كلامه فى (الكشاف) تسمية علمى «البيان والبديع» بعلم البيان، وقد يسمى علوم البلاغة الثلاثة بعلم البديع استشهادًا بقوله تعالى: (أولئك الذين اشتَرَوا الضَّلالَة بالهُدَى) (البقرة ١٦)، إنه من الصنعة الديعية»[٤].

والزمخشرى وإن ذكر مصطلح «البديع» عند ذكر بعض ألوانه، كالجناس - عند قوله تعالى: (وجئتك من سَبإٍ بنبأ يقين) (النمل ٢٢)، فيقول: إن هذا من جنس البديع الذى سماه المحدثون «البديع»، وهو من محاسن الكلام التى تتعلق باللفظ[٥].

---

(١) الكشاف جـ ٤/٨.
(٢) الكشاف جـ ٢/٥٤٢.
(٣) الكشاف جـ ١/١٧١.
(٤) عروس الأفراح جـ ١/١٥١.
(٥) الكشاف جـ ٣/٢٨٤.

كما ذكر مصطلح «علم البيان» عند ذكر بعض ألوانه عند تفسيره لقوله تعالى: (والأرضُ جميعًا قَبْضَتُه يوم القيامة والسمواتُ مطوياتٌ بيمينه) (الزمر ٦٧)[١].

وعلى الرغم من ذلك فقد خلط بينها جميعًا، فبحوث «علم المعانى» أطلق عليها «علم البيان» كما فى الاختصاص والاستئناف - المعروف فى «الفصل والوصل»، «واللف والنشر» الذى يعد من «علم البديع» تحدث عنه باسم «البيان»، والصور البيانية الخالصة وصفها بالصنعة البديعية - كما وضح ذلك فى النصوص السابقة المنقولة عن الزمخشرى.

وإذا فذكر «علم البيان، وعلم المعانى» فى «كشاف» الزمخشرى، لا يعدو أن يكون مجرد تسمية أطلقها دون أن يضع حدًّا لعلم البيان أو المعانى، ودون أن يفرق من الناحية العلمية والتطبيقية بين مباحث علم البيان وعلم المعانى على نحو ما فعل السكاكى فى المفتاح[٢].

وبعد هذا يجدر بنا أن نقول إن السكاكى هو أول من أطلق على الموضوعات التى تبحث فى الصورة الأدبية - التشبيه والمجاز والكناية - مصطلح «علم البيان» كما سبق توضيحه.

سبب إقحام الدلالات فى «علم البيان»

عندما جاء السكاكى وقسم البلاغة إلى المعانى، والبيان، والمحسنات، أدخل الدلالات فى موضوعات «علم البيان» وأقحمها فيه بدون داع، ورأى أن صاحب «علم البيان» يحتاج إلى التعرض لأنواع دلالات الكلم، ولهذا جعل له مبحثًا فقال:

---

(١) الكشاف جـ ٤/١١٠.

(٢) انظر تفصيل ذلك فى بلاغة القرآن فى آثار القاضى عبد الجبار ص ١١٨ للمؤلف ط. دار الفكر العربى، المعانى فى ضوء أساليب القرآن ص٨٣ للمؤلف ط دار المعارف.

«لا شبهة فى أن اللفظة متى كانت موضوعة لمفهوم أمكن أن تدل عليه من غير زيادة ولا نقصان بحكم الوضع، وتسمى هذه دلالة المطابقة ودلالة وضعية، ومتى كان لمفهومها ذلك - ولنسمه أصليًا - تعلق بمفهوم آخر داخلا فى مفهومها الأصلى كالسقف - مثلا - فى مفهوم البيت، ويسمى هذا دلالة التضمن، ودلالة عقلية أيضًا، أو خارجًا عنه كالحائط عن مفهوم السقف، وتسمى هذه دلالة الالتزام ودلالة عقلية أيضًا[١]».

والدلالات التى تحدث عنها السكاكى فى بحث البيان هى :

١ - دلالة المطابقة : وهى دلالة اللفظ على تمام ما وضع له، كدلالة البيت على مجموع الجدار والسقف.

٢ - دلالة التضمن : وهى دلالة اللفظ على جزء ما وضع له أو جزء مسماه مع دخوله فيه، كدلالة البيت على الجدار أو السقف.

٣ - دلالة الالتزام : وهى دلالة اللفظ على معنى خارج عن مسماه لازم له كدلالة السقف على الجدار لأنه لازم له لا جزء منه.

وتسمى دلالة المطابقة عند البيانيين وضعية، ودلالة التضمن والالتزام عقليتين.

وقد عبر الإمام عبد القاهر عن الدلالة الوضعية والعقلية بعبارة مختصرة، وهى أن تقول : المعنى ومعنى المعنى، ونعنى بالمعنى : المفهوم من ظاهر اللفظ، والذى نصل إليه بغير واسطة، وبمعنى المعنى : أن تعقل من اللفظ معنى، ثم يفضى بك ذلك المعنى إلى معنى آخر[٢].

والمقصود بالدلالة فى تعريف علم البيان : هى الدلالة العقلية.

وقد بنى السكاكى تقسيم علم البيان على هذه الدلالات فأخرج التشبيه منه، لأن دلالته وضعية، ولا يمكن بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة، وأيد ذلك بقوله : «إذا أردت تشبيه الخد بالورد فى الحمرة - مثلا - وقلت : خد يشبه الورد،

---

(١) المفتاح ١٥٦.

(٢) الدلائل ١٩٠.

امتنع أن يكون كلام مؤد لهذا المعنى بالدلالات الوضعية أكمل منه فى الوضوح أو أنقص، فإنك إذا أقمت مقام كل كلمة منها ما يرادفها، فالسامع إن كان عالمًا بكونها موضوعة لتلك المفهومات، كان فهمه منها كفهمه من تلك من غير تفاوت فى الوضوح، وإلا لم يفهم شيئا أصلا، وإنما يمكن ذلك فى الدلالات العقلية. . . »[١].

وعلى هذا فلا يمكن وجود الوضوح والخفاء فى الدلالة الوضعية.

وأما الدلالة العقلية فهى التى يمكن بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة فى وضوح الدلالة عليه، وباتخاذهم الدلالة العقلية وحدها أساسًا للوضوح والخفاء انحصر علم البيان فى بابين أصليين وهما: المجاز والكناية، وخرج التبيشه لأن دلالته وضعية.

«وتعرضنا لمبحث الدلالات لا يعنى اعتقادنا بغنائها فيما نحن بسبيله، ولكن لنصل إلى مقطع الحق، ورفع الضيم عن التشبيه الذى كادوا يقطعونه عن البيان، أو ينزلونه منزلة الواو من عمرو، وهو عمدة هذا الفن وركنه الركين»[٢].

مكانة التشبيه من علم البيان

على الرغم من أن السكاكى بنى تقسيم البيان على الدلالات وأخرج التشبيه منه لأن دلالته وضعية، والدلالة الوضعية لا يمكن أن يراد بها إيراد المعنى الواحد بطرق مختلفة.

ومع ذلك لم يستطع السكاكى أن يهمل بحث التشبيه فى علم البيان، وأنّى له ذلك؟ وهو يعلم أنه باب واسع كثير الاستعمال وله مزايا تورث الكلام حسنا وبهاء.

---

(١) المفتاح ١٥٦.

(٢) فن التشبيه جـ ١/٢٧.

لقد تكلف وتعسف فى طريقة إدخاله فى علم البيان، فقال:

«ثم المجاز - أعنى الاستعارة - من حيث إنها من فروع التشبيه، لا تتحقق بمجرد حصول الانتقال من الملزوم إلى اللازم، بل لا بد فيها من تقدمه تشبيه شىء بذلك الملزوم فى لازم له، تستدعى تقديم التعرض للتشبيه، فلابد من أن نأخذه أصلا ثالثًا ونقدمه، فهو الذى إذا مهرتَ فيه ملكت زمام التدرب فى فنون السحر البيانى»[١].

وبذلك أصبحت أصول البيان أربعة، أصلان ذاتيان، وهما المجاز والكناية، وواحد وسيلة، وهو التشبيه، وواحد جزء من أصل، وهو الاستعارة[٢].

وقَلَّ من علماءِ البلاغة من تمرد على تقليد السكاكى، أو حاول تحطيم القيود التى فرضها على مقدمة علم البيان.

ومن هؤلاء: سعد الدين التفتازانى، فقد قال[٣]:

«فإن قلت: إذا كان ذكر التشبيه فى علم البيان بسبب ابتناء الاستعارة عليه، فلم جعل مقصوداً برأسه دون أن يجعل مقدمة لبحث الاستعارة؟

قلت: لأن لكثرة مباحثه وعموم فوائدة ارتفع عن أن يجعل مقدمة لبحث الاستعارة واستحق أن يجعل أصلا برأسه، هذا هو الكلام فى شرح مقدمة «علم البيان» على ما اخترعه السكاكى، وأنت خبير بما فيه من الاضطراب، والأقرب أن يقال: علم البيان: علم يبحث عن التشبيه والمجاز والكناية، ثم يشتغل بتفصيل هذه المباحث من غير التفات إلى الأبحاث التى أوردها فى صدر هذا الفن».

وقد علق الشريف على المطول - منكرا كلام السكاكى - فقال[٤]:

«ثم الحق أن التشبيه أصل برأسه من أصول هذا الفن، وفيه من النكت

---

(١) المفتاح ١٥٧.

(٢) فن التشبيه جـ١/٢٢.

(٣) المطول ٣٠٩.

(٤) حاشية الشريف على المطول ٣١٠.

واللطائف البيانية ما لا يحصى، وله مراتب مختلفه فى الوضوح والخفاءِ[١] مع أَن دلالته مطابقية».

ويقول الدسوقى فى حاشيته[٢]: «ويمكن أن يقال: إنه - أى التشبيه - باب مستقل لذاته، لأن الاختلاف فى وضوح الدلالة وخفائها موجود فيه، فهو من هذا الفن قصداً وإن توقف عليه بعض أبوابه، لأن توقف بعض الأبواب على بعض لا يوجب كون المتوقف عليه مقدمة للفن».

ونحن نقر هؤلاءِ على رأيهم، لأن التشبيه باب واسع فى اللغة، وهو أكثر الفنون دورانا واستعمالا فى الأساليب العربية، وكان من أوائل الموضوعات التى بحثت واهتم بها النقاد والبلاغيون، فدار فى كتبهم المختلفة، وأُلفت فيه كتب خاصة، يقول المبرد[٣]: «والتشبيه جار فى كثير من الكلام - أعنى كلام العرب - حتى لو قال قائل: إنه أكثر كلامهم لم يُبعِد».

تعريف «علم البيان»

قد يجد الأديب فى دلالة الألفاظ المجردة شيئاً من العموم وعدم الدقة، أو يجد أن ذلك اللفظ المجرد لا يستطيع أن يحمل ما فى نفسه من شعور، فيفزع إلى فن التصوير فى اللغة التى تقدم صوراً متعددة للتعبير عن المعنى الواحد، فيختار منها ما يراه ملائماً لما فى نفسه كفيلا بنقله إلى السامع على شكل يرضاه، أو ينتقى منها صورة يتخذها قالباً يصب فيه ما فى نفسه، وما يلفُّه من شعور.

فمثلا - أديبٌ يريد أن يصف قوماً بالشجاعة، فقد يجد من ضروب التشبيه، وأنواع الاستعارة، وصنوف الكناية، وسيلة تنهض بغايته.

---

(١) فمثلا خالد كحاتم فى الجود، خالد كحاتم، خالد حاتم، هذه تراكيب ثلاثة دالة على معنى الكرم بعضها أوضح من بعض فى الدلالة عليه، فأوضحها ما صرح فيه بوجه الشبه والأداة، ويليه ما صرح فيه بأحدهما، وأقلها وضوحاً ما لم يصرح فيه بواحد منهما. «والأمثلة على الترتيب».

(٢) حاشية الدسوقى ضمن شروح التلخيص جـ٣/٢٩٠.

(٣) الكامل جـ٢/٦٩، ٩٠.

فيرى فى قول حسان بن ثابت يفتخر بيوم بدر - مثلا لذلك - فيقول :

فـلاقينـاهُم منـا بجمـع كأُسْد الغاب مُرْدانٍ وشِيبِ

فقرن شجاعة القوم - المردان والشيب - بشجاعة الأُسْد فى الغابات، وذلك عن طريق التشبيه ذى الأداة.

وقد يعمد إلى التشبيه ذى الطرفين فقط، كقول أَوس بن حجر :

فإنَّ أَبا الصَّهْباءِ فى حَوْمِة الوَغَى إذا ازْوَرَّت الأبطالُ ليثٌ مجرَّبُ

وهذا يكون أَوكد لمعنى الشجاعة.

وقد يعدل إلى صورة التشبيه التمثيلى، فيقول :

وتـراه فى ظلم الوغى فتخـالُـه قمرا يكُرّ على الرجـال بكوكب

فتكون الصورة فى تلك المرة أَبعد تأثيراً، وأَدخل فى باب البلاغة.

وقد يأتى فى كلامه الدليل والبرهان على صدق دعواه - مستعملا التشبيه الضمنى، فيقول :

ضحوكٌ إلى الأَبطال وهو يَروُعهم وللسيف حَدٌّ حين يَسْطو ورَوْنق

وقد يصير إلى لون من أَلوان الاستعارة، فيزيد المعنى قوة، واللفظ إيجازاً، فيقول قول زهير بن أَبى سُلمى :

إذا فزِعوا طاروا إلى مُسْتَغيثهم طوالَ الرماح لا ضِعَافٌ ولا عُزْل

فقد صور شجاعة القوم وسرعتهم عند طلب النجدة بالطيران، عن طريق الاستعارة.

وقد يقصد إلى ما هو أشد إمعاناً فى التخييل، فيقول قول الآخر :

إذا ما تَرَدَّى لأُمةَ الحرب أُرْعِدَت حَشَا الأرض، واستَدْمَى الرماحَ الشوارِعا[1]

---

(١) استدمى : خلطها بالدم.

فقد صور الأرض فى صورة إنسان ترتعد أحشاؤه خوفاً من ذلك الإنسان الشجاع عن طريق «الاستعارة المكنية».

وقد يصير إلى نوع آخر، كالاستعارة التمثيلية، فيقول:

ومن يجعل الضِّرغام للصَّيد بازه تَصَيِّده الضرغام فيما تصيَّدا[1]

وقد يعرض المعنى فى صورة من صور الكناية، فيقول قول عمرو بن كلثوم:

ونشربُ إن وَرَدْنا الماء صفْواً ويشربُ غيرُنا كَدَراً وطينا

أو فى صورة من صور المجاز المرسل، كقول السموأل:

تسيلُ على حَدِّ الظُّباةِ نفوسُنا وليستْ على غير الظباةِ تَسيل

* * *

فهذه الأبيات كلها تدل على معنى واحد - وهو الشجاعة - وقد وجدنا فيها فنونا من القول، وأنواعاً من البيان، وصنوفاً من التصوير، فمن التشبيه، إلى الاستعارة، إلى الكناية، إلى المجاز المرسل، وكلها تتبارى فى الحسن، وتتنافس فى الجمال، وفى مراتب متفاوتة من الوضوح، فالتراكيب كلها واضحة وجلية، لكن بعضها أوضح من بعض، وتتفاوت فى شدة الوضوح وضعفه، تبعا لمقتضيات الأحوال، وطبقاً لاختلاف المقامات.

فكل صور التشبيه واضحة جدًّا - على الرغم من تفاوتها فى درجة المبالغة - يلحظها الدهماء، ويفهمها العامة، أما صورة الاستعارة والكناية، فتدق وتلطف، حتى لا يدركها إلا الخاصة، لذلك فمن البلاغة ألَّا ندلى بهذه الصور السابقة إلا لمن يفهم أسرارها، ويجب أن نعرف حال المخاطب لنخبره بأسلوب يتمشى مع فهمه ويتوافق مع عقله.

---

(١) يقال مثلا للتاجر اختار مشرفاً على متجره فنهبه واغتاله، فالمعنى الحقيقى للبيت، أن من اتخذ الأسد وسيلة للصيد افترسه فى جملة ما افترس، ولكن المتنبى لم يرد المعنى الحقيقى وإنما أراد المعنى المجازى، على سبيل الاستعارة التمثيلية.

فنتأمل معاً، كم قدم لنا علم البيان من الصور للتعبير عن المعنى الواحد؟! ومن أجل ذلك عرف البيانيون علم البيان بقولهم:

علم يعرف به إيراد المعنى الواحد فى صور مختلفة، متفاوتة فى وضوح الدلالة، مع مطابقة كل منها لمقتضى الحال.

وعلى هذا فمنزلة «علم المعانى» من «علم البيان» منزلة المفرد من المركب لأن رعاية المطابقة لمقتضى الحال - وهى مرجع علم المعانى - معدودة فى «علم البيان» مع زيادة شيء آخر، وهو إيراد المعنى الواحد بتراكيب مختلفة[1]:

وعرفه آخرون:

بأنه علم يبحث فى التشبيه والمجاز والكناية.

* * *

(١) شروح التلخيص جـ١/١٥٣.